الكاتب المصرى

شعبان ١٣٦٦ — يوليو ١٩٤٧

السنة الثانية — مجلد ٦ — عدد ٢٢

إجـــــازة

لا أريد تلك الإجازة التى كان القدماء من علمائنا يهدونها إلى تلاميذهم فتكون إذناً لهم بأن ينقلوا عنهم هذا الكتاب أو ذاك ، مما نقلوا عن غيرهم أو أنشأوا من عند أنفسهم ، والتى ظل المحافظون من علمائنا يتلقونها من أساتذتهم ، ويهدونها إلى تلاميذهم ، ولا سيما فيما يتصل بالحديث ، يكتبونها نثراً فى أكثر الأحيان ، ويتأنقون فينظمونها شعراً بين حين وحين .

ولا أريد الاجازة التى نشأت عن هذا المعنى القديم ، واستعملت فى العصر الحديث ، لتدل على شئ محدث لم يكن مألوفاً فيما مضى من الزمان ، وهو هذا الإذن الرسمى الذى تمنحه الجامعات ، ومعاهد العلم للذين يتخرجون فيها من التلاميذ ، وتبيح لهم به أن يعلموا الأجيال الناشئة ، ما تعلموا من الأجيال الماضية .

لا أريد إجازة الأستاذ القديم لتلميذه القديم ، ولا إجازة التدريس التى تمنحها الجامعات الحديثة للتلاميذ المحدثين ، متأثرة فى تسميتها بالجامعات الأوربية فى القرون الوسطى ، أكثر من تأثرها بسنتنا الموروثة وتقليدنا القديم . ولا أريد الاجازة التى تصدر عن الملوك والأمراء وأشباه الملوك والأمراء ، الى الشعراء والكتاب ، فتمنحهم الجوائز السنية من الذهب والفضة والجوهر ، ومن الإبل والشاء والطعام والثياب ، وإنما أريد الإجازة بمعناها الشائع الحديث بين الموظفين من جهة ، وبين الطلاب والتلاميذ نقلا عن الموظفين من جهة أخرى . فلم نكن أيام الشباب نطلق لفظ الإجازة على ما يتاح

للمعلمين والمتعلمين من أيام الفراغ ، وإنما كنا نسمى ذلك تسمية أخرى يسيرة واضحة قريبة الدلالة ، كنا نسميها « المسامحة » .

وكنا نعرف المسامحات الطوال حين يقبل فصل الصيف ، وحين يظل شهر رمضان أساتذة الأزهر وتلاميذه أثناء الشتاء ، والمسامحات القصار حين تعود الأعياد وتظل المواسم . وكنا نفهم من هذه الكلمة أن النظام الأزهرى أو المدرسى ، يسامح المعلمين والمتعلمين ، ويأذن لهم فى أن يستريحوا من جهد الدرس ومشقة انطلب وخشونة الحياة ، وفى أن يعودوا إلى أهلهم فى المدن والقرى ، ليجدوا عندهم أياماً فارغة ، تستريح فيها العقول ، وتنمو فيها الأجسام ، وتستمتع فيها النفوس بشئ من الرَّوح والهدوء . وكانت كلمة المسامحة هذه تؤدى معناها فى قوة ويسر ، لا نكاد ننطلق بها حتى نفهم منها الراحة والدعة والحرية والنوم إلى أن يرتفع الضحى ، لا نستيقظ قبل أن ندعى إلى صلاة الفجر لنشهد الصلاة ونسمع الدروس ؛ والنوم إذا زالت الشمس واجتمعنا حول مائدة الغداء وتفرقنا عنها ، لا نعجل عن ذلك بدرس النحو أو درس البلاغة ؛ والسهر حتى يتقدم الليل فيبلغ نصفه أو يتجاوز النصف ، نسمر أثناء ذلك بما يسلى ويلهى ، ولا نشق على أنفسنا بتلك المشكلات العلمية التى كانت تكلفنا ألوان العناء .

ولست أدرى كيف أعرضنا عن كلمة المسامحة تلك السمحة الحلوة التى يمتد بها الصوت ويشارك فى النطق بها الحلق واللسان والشفتان ، إلى كلمة الإجازة هذه القصيرة التى اجتمع بعض حروفها على بعض فلا يكاد الصوت يمتد بها ، ولا تكاد النفس تجد حين يجرى بها اللسان شيئاً من راحة أو دعة أو هدوء .

وأكبر الظن أن الموظفين هم الذين أدوا هذه الكلمة إلى أبنائهم ، فاصطنعوها ليدلوا بها على أيام الراحة والفراغ ، يرون فى اصطناعها شيئاً من ترف ، ويقلدون آباءهم حين يدلون بهذه الكلمة على ما تمنحهم الدولة من أيام الفراغ فى كل عام . ومهما يكن من شئ ، فإنى أريد أن أتحدث عن الإجازة بهذا المعنى الذى يستعملها فيه الموظفون والمحدثون من الطلاب والتلاميذ ، وهو هذه الأيام الطوال أو القصار التى تمنح للموظفين والطلاب والتلاميذ ، والتى نمنحها نحن لأنفسنا حين نكون أحراراً لا من أولئك ولا من هؤلاء ، نرفه فيها على أنفسنا ، ونستريح فيها من عناء الأعمال ، كما يقال .

وواضح أنى إنما أتحدث عن هذه الاجازة ؛ لأنى منحت نفسى إجازة أريح فيها وأستريح من هذا العناء الطويل الثقيل الذى أنفقت فيه العام ، فتعبت وأتعبت ، وشقيت وأشقيت ، وأحسست الحاجة إلى أن أريح نفسى من التعب والإتعاب ، ومن الشقاء والإشقاء ، وأريح الناس الذين يتصلون بى من قرب أو بعد أشهراً أو أسابيع ، فلا أفكر فيهم ولا يفكرون فى ، ولا أشقى بالكتابة لهم ولا يشقون بالقراءة لى ، ولا أضنى نفسى بالاتصال بهم ولا يضنون أنفسهم بالاتصال بى .

وقد يخيل إلى كثير جدا من الناس أن معنى الإجازة مختصر قصير كلفظها، فهى أيام راحة ودعة وفراغ لا أكثر ولا أقل .

ولكنهم لو فكروا قليلا لتبينوا أن معنى الاجازة أوسع وأعمق وأطول من لفظها ، وأنه أدق وأشد تعقيداً مما يظنون . ولو لم يكن أمامنا إلا هذه الألفاظ الثلاثة نحللها ونستقصى معانيها لنفهم معنى الاجازة ، لكان هذا فى نفسه عسيراً شاقا ، فكيف وأمامنا أشياء أخرى أكثر وأعسر من هذه الألفاظ الثلاثة وكلها يحتاج إلى التحليل ، وكلها يحتاج إلى الاستقصاء !

فلنكتف الآن بهذه الألفاظ الثلاثة لا لنستقصى معانيها بل لنلم بهذه المعانى . فالإجازة أيام راحة ، فما عسى أن تكون الراحة ؟ ما موضوعها وما طبيعتها ؟ وما وسائلها وما غايتها ؟

تريد أن تستريح ، فمم تريد أن تستريح ؟ وممن تريد أن تستريح ؟ ألست ترى أن الجواب على هذين السؤالين يختلف أشد الاختلاف ويتفاوت بتفاوت الأشخاص وطبائعهم ، وما يمارسون من أعمال ، وما ينعمون أو يشقون به من ألوان الحياة منذ يسفر الصبح إلى أن يتقدم الليل ؟ أما أنا فاذا ذكرت الإجازة وذكرت أنها أيام راحة لى ، وحاولت أن أعرف مم أريد أن أستريح ، فقد يكون أول ما يخطر لى أنى أريد أن أستريح من ثلاثة أشياء أشقى بها فى مصر شقاء لا يكاد أحد يتصوره أو يقدره : أولها التليفون الذى يصلصل جرسه منذ تشرق الشمس إلى أن تشرق الشمس ، لا ينقطع عن الصلصلة إلا ليستأنفها ، ولا يكف عنها إلا ليعود إليها . وصلصلة جرس التليفون هذه مختلفة متنوعة معقدة ، فيها كثير من العسر ، وفيها كثير من الهم ، وفيها كثير من العناء ، وفيها قليل جداً من النعيم الذى تبتهج له النفوس وتطمئن إليه القلوب . فهذه

صلصلة تستلك من السرير استلالا ولما تشرق الشمس ، فاذا قطعتها واستمعت إلى هذا الصوت الذى يدعوك من أقصى الخيط ، كما يقول الفرنسيون ، فقد تقع أذنك أو يقع على أذنك صوت لا عهد لك به ولا أرب لك فيه . صوت مخطئ أراد أن يهدى إلى غيرك خيراً أو شرا ، وأبى سوء الظن إلا أن يغلط به ، فما زال يلح على أداة التليفون ، وما زال الجرس يصلصل حتى أزعجك عن راحتك وأخرجك من نومك ، واستلك من سريرك . ثم تسمع ثم تنكر ، ثم ترد مغضباً أو غير مغضب ، ثم تضع أداة التليفون كما ينبغى لها أن توضع عنيفاً بها أو رفيقاً ، ثم تعود إلى نفسك ، وإذا أنت تجد شيئاً مرًّا بغيضاً يصور الحنق على من أخرجك من نومك الهادئ المطمئن ، وأزعجك عن راحتك واستقرارك ، ويصور خيبة الأمل لأنك لم تجد من وراء هذا كله إلا هباء لا خطر له ولا غناء فيه . وقد يصلصل جرس التليفون فيزعجك عن راحتك ويصرفك عن حلم لذيذ ويذود عنك نوماً هنيئاً ، فإذا بلغت أداة التليفون سمعت صوتاً تعرفه فأنبأك فى أكثر الأحيان بما لا تحب وابتدأ لك يوماً منكراً ؛ لأن الناس يبخلون عادة بما يسر من الأنباء ، وتطيب أنفسهم عن الأنباء السيئة يعجلون بها إليك فى غير أناة ولا رفق ولا استحياء . وقد يصلصل جرس التليفون فيزعجك ويثقل عليك ويكلفك من المشقة فنوناً ومن الجهد ألواناً ، حتى إذا سمعت لصوت من دعاك ضقت بالدنيا وضاقت الدنيا بك ؛ لأنك تجد نفسك بإزاء رجل سخيف يسألك عن شئ سخيف أو يحمل إليك نبأ سخيفاً . وإذا ابتدأت هذه الصلصلة المختلفة المتنوعة فهيهات أن تسكن أو تهدأ أو تقطع ، وإنما هى متصلة ملحة ، حتى تصبح جلجلة لا صلصلة ، وحتى تبغض إليك الحياة والأحياء وما حولك من الأشياء .

ولست أدرى أحاول بعض الناس أن يقارنوا بين اصطناع التليفون فى مصر واصطناعه فى غيرها من البلاد . ولكن الشئ الذى أحققه هو أن أهل القاهرة خاصة يسرفون على أنفسهم وعلى الناس فى اصطناع التليفون إسرافاً شديداً ، لا يرفق أحد منهم بنفسه ولا يرفق أحد منهم بغيره ، لا يفرقون بين العجلة والريث ولا بين ما ينبغى أن يؤدى من الرسائل فى سرعة وما يمكن أن ينتظر به إلى وقت يقصر أو يطول . والمصريون أصحاب فصاحة ولسن وفيهم غرور وعجب . وهم يحبون أصواتهم ويحبون ألفاظهم ويحبون ما يصدر عنهم من قول أو عمل . وهم إذا بدءوا الحديث لم يعرفوا كيف يفرغون منه . وهم لا يفرقون بين الحديث

الذى يسوقونه إليك وجهاً لوجه والحديث الذى يسوقونه إليك من أقصى الخيط . وهم يؤمنون بأنفسهم و بحقوقهم و بمنافعهم و بجدهم ولعبهم ، ولا يكادون يؤمنون لأحد غيرهم بشئ من ذلك. وهم من أجل ذلك لا يقدرون أن التليفون أداة عامة قد أنشئت لينتفع بها الناس جميعاً لا لينتفع بها إنسان بعينه دون غيره من سائر الناس . وهم من أجل ذلك لا يقدرون أن التليفون أداة قصد بها إلى التيسير والسرعة . فلا ينبغى أن تستخدم إلا عند الضرورة الملجئة و إلا أقصر وقت ممكن . وهم من أجل هذا كله يتحدثون بغير حساب ويطيلون فى غير رفق ، لا يعنيهم أن يصدوا غيرهم عن التليفون ، ولا يعنيهم أن يشقوا عليك بحديثهم الطويل المتصل ، حسبهم أن يقولوا وأن يحسوا أنك تسمع لما يقولون ، وهم لا يرون وجهك حين يربدّ ، ولا يرون جسمك حين يضطرب ، ولا يرون ماتدفع إليه من حركات الغيظ والضيق ؛ فهم يقولون و يقولون ، وكل شئ يدعوهم إلى القول ، وكل شئ يدعوهم إلى إطالة القول . وكذلك يصلصل التليفون منذ تشرق الشمس إلى أن تشرق الشمس. ولولا أن النوم فرض محتوم على الناس جميعاً لكان التليفون و إلحاح المصريين فى اصطناعه مصدراً خطيراً من مصادر الجنون ، وهو على كل حال مصدر خطير من مصادر اضطراب الأعصاب .

فاذا ذكرت الراحة التى أطمع فيها أو أطمح إليها ، فقد يكون أول شئ أفكر فيه هو صلصلة التليفون . وشئ آخر أفكر فيه إذا ذكرت الراحة أو سعيت إليها ، وهو هذه الزيارات المفاجئة التى تصب عليك صبًّا بغير حساب وفى غير تقدير وعلى غير إيذان بها وانتظار لها . فأنت متى عنيت من قريب أو بعيد بالحياة العامة فلست ملكا لنفسك ولست ملكا لأهلك ولست ملكا لعملك؛ و إنما أنت ملك للشعب كله، يدبر أمرك كما يريد لا كما تريد، وعلى مايشتهى لا على ما تحب. وليس بالشئ المهم ولا بالشئ ذى الخطر أن تكون رجلا مثقلا بالأعباء التى تتصل بمصلحتك ومصلحة الناس ، أو أن تكون رجلا محبّاً لهذا اللون أو ذاك من ألوان النشاط تريد أن تفرغ له وتعكف عليه ، و إنما المهم كل المهم والخطير كل الخطير هو أن تكون رجلا سمحاً سهلا مفتوح الباب مؤدب الخدام ، لاترد ملهوفا إن ألم ولا تمتنع على زائر إن زار . وقد يكون أظرف شئ فى هذه الخطوب أن يسعى إليك الرجل لم تعرفه قط ولم تتصل أسبابك

بأسبابه ، وليس بينك وبينه مايدعو إلى اتصال الأسباب ، ولكنه قرأ لك كتاباً أو جزءاً من كتاب أو فصلا فى مجلة أو مقالا فى صحيفة أو استمع لبعض أحاديثك فى الراديو أو سمع الناس يتحدثون عنك ، فأحب أن يراك وأن يجلس إليك ساعة من نهار أو من ليل ، لم يؤامرك فى ذلك ولم يشاورك ، وليس يعنيه أن تكون الساعة ملائمة أو غير ملائمة ، وإنما يعنيه أن يراك ويقول لك ويسمع منك ولا عليه بعد ذلك أن يضيع وقتك أو يفسد عملك ، فذلك آخر مايفكر فيه . والغريب أن الناس الذين يشقون عليك ويكلفونك هذه الألوان من الجهد ولا يحسبون لوقتك ولا لعملك حساباً هم الذين يلحون عليك فى أن تكتب فى كل يوم مقالا وفى كل أسبوع فصلا وفى كل شهر كتاباً ، فان لم تفعل فأنت مسرف فى الكسل بخيل بالأدب غارق فى البخل إلى أذنيك . وإياك أن تجمع لهم فصولا متفرقة وتنشرها فى سفر مستقل ، فانهم لاينتظرون منك ذلك ولا يرضونه لك ولا يرضونه لأنفسهم ، وإنما هم ينتظرون منك أن تقدم إليهم فى كل يوم شيئاً جديداً مبتكراً ، وألا تقرئهم أثراً من آثارك مرتين مرة فى الصحف والمجلات ومرة أخرى فى الكتب والأسفار .

هم إذن يضيعون وقتك ويحاسبونك على هذا الوقت الذى أضاعوه ، وهم على ذلك لايقدرون أن للجهد الإنسانى غاية يقف عندها ، وأن الوقت الضائع لاسبيل إلى استئنافه ، وأن الكاتب محتاج إلى أن يقرأ فيكثر القراءة ، وإلى أن يبحث ويحس البحث ، وإلى أن يفكر ويطيل التفكير ، لينتج فيجيد الانتاج .

هم لايقدرون ذلك ولا يفترضونه ، وإنما ينظرون إليك كما ينظر الطفل الساذج إلى أبيه يحسبه قادراً على كل شئ فلا يتردد فى أن يطلب إليه كل شئ .

فأى غرابة فى أن أذكر هؤلاء الزائرين المفاجئين إذا ذكرت الراحة أو سعيت إليها ؟ وشئ ثالث أذكره مغتبطاً به وأفكر فيه مبتهجاً له حين أمنح نفسى إجازة وألتمس شيئاً من راحة ، وهو أنى سأفلت وقتاً طويلا أو قصيراً من الكتابة فيما لا أحب أن أكتب فيه ، ومن العناية بما لا أحب أن أعنى به . والناس لا يقدرون ما يتعرض له الكاتب من الشر والنكر والشقاء من هذه الناحية . فالكاتب المصرى قادر بطبعه عند المصريين على أن يكتب فى كل شئ ، وعلى أن يلم بكل موضوع ، وعلى أن ينتج فى كل لحظة من لحظات الليل

والنهار . الناس كلهم محتاجون إلى الراحة إلا هو ؛ فإن الراحة لم تخلق له كما أنه لم يخلق لها ، كما أن التعب لا يمكن أن يجد إليه سبيلا . والناس كلهم ميسرون لما خلقوا له إلا الكاتب فانه ميسر لكل شئ لأنه خلق لكل شئ .

وما ينبغى أن تقول لأصحاب العلم إنى صاحب أدب فلا أستبيح لنفسى أن أقدم كتاباً فى العلم ، ولا أن تقول لأصحاب السينما إنى لا أعرف من أمر السينما شيئاً فلا أستطيع أن أكتب عما يتصل به اتصالا قريباً أو بعيداً .

لاينبغى أن تقول شيئاً من ذلك إذا كنت كاتباً ؛ لأنك بحكم صناعتك قادر على أن تكتب فى كل شئ ، وينبغى أن تكتب فى كل شئ . والناس لايعرفون حين يطلبون إليك المقال أو الفصل أو الحديث أو المقدمة رفقاً ولا لينـاً ولا مياسرة ، وأكاد أملى ولا حياء . فهم يطلبون ويطلبون ويلحون ويلحون ، فاذا أعياهم أن يبلغوا منك ما أرادوا توسلوا إليك بمن تحب وتشفعوا إليك بمن لا تملك لشفاعته ردًّا حتى يبغضوا إليك الكتابة ويكرهوا إليك الأدب ويوشكوا أن يزهدوك فى الحياة .

وربما يتجاوز الأمر هذا الحد إلى حدود أخرى غير معقولة ولا منتظرة . فالناس يعرفون رأيك فى السياسة ، وأن هواك مع هذا الحزب أو ذاك ، ولكنهم لايترددون فى أن يطلبوا إليك أن تكتب حيث لا تحب أن تكتب . وهم يقولون لك فى ابتسام ساذج : إنا لانطلب إليك أن تقول غير ماترى ، وإنما نطلب إليك أن تكتب ما تشاء ، أكتب فى الأدب فالأدب فوق السياسة وفوق الأحزاب ، ليس له وطن فأحرى ألا تكون له صحيفة ولا حزب . وكذلك تنفق نهارك معرضاً لهذه المطالب التى لاتنقضى والتى لاتعرف الرفق . فاذا ذكرت الصحف اليسيرة العابثة فحدِّث عن إلحاحها عليك وتحرشها بك ولا تخش مبالغة ولا إسرافاً . وأكاد أعتقد أن الله إنما خلق التليفون ليتيح لكتاب الصحف اليسيرة العابثة أن يمطروا عليك وابلا غزيراً من الأسئلة لاينقضى ، وليس بينك وبين محدثك سبب وليس لك أمل فى أن يكون بينك وبينه سبب ، ومع ذلك فيجب أن تستجيب للتليفون إذا صلصل جرسه ، وأن ترد على محدثك بعد أن تسمع سؤاله الغريب ، واعتذر ما شئت أن تعتذر ، فلن تخلص من إلحاحه إلا إذا خرجت عما ينبغى لك من الأدب وحسن المجاملة . وليس من المهم أن يكون لديك من العمل ما هو خليق أن يشغلك عن التليفون وعن الزيارة

وعما يحمل التليفون والزيارة إليك من أسئلة لا رأس لها ولا ذيل ، و إنما المهم أنك رجل قد اصطنع الكتابة واحترف الأدب ، فنزل عن نفسه للشعب أولا وللصحف والمجلات ثانياً ، و إذا لم يتح له أن يرد على أصحابها ومحرريها فلا أقل من أن يسمع لهم .

ومن طرائف هذا الباب أن أصحاب هذه الصحف ومحرريها قد انتهزوا فرصة حياتنا السياسية فى هذه الأيام الأخيرة ، فطاردوا أصحاب السياسة من الوزراء وأشباه الوزراء ومن الرؤساء وأشباه الرؤساء ومن الزعماء وأنصاف الزعماء ، وما زالوا بهم حتى أنزلوهم على حكمهم . فهم يلمون بدورهم إذا أصبحوا ، ويلمون بدورهم إذا أمسوا ، ويلحقون بهم فى أنديتهم حين يرتفع الضحى أو حين يقبل المساء ، يلقون عليهم الأسئلة وينتزعون منهم الأجوبة ، وينشرون ذلك فى صحفهم متنافسين فيه متهالكين عليه . فاذا سعوا إليك أنت أو تحدثوا إليك بالتليفون وأحسوا منك إباء وامتناعاً كبر ذلك عليهم وأنكروا أن يستجيب لهم الباشوات من أعضاء نادى محمد على وأن يمتنع عليهم كاتب لم يبلغ الوزارة وليس يطمع فى الوزارة ، ولم تتح له الزعامة وليس يطمع فى أن يكون زعيما . فأى غرابة فى أن أفكر فى هذا اللون من العناء البغيض الثقيل إذا ذكرت الراحة أو سعيت إليها .

والحياة فى مصر منذ أثيرت أزمتنا السياسية شقاء كلها بالقياس إلى الرجل المثقف إن كان له قلب أو حظ يسير من العناية بالشؤون العامة . فهو يشارك مواطنيه قبل كل شئ فيما يجدون من شقاء وما يداعبون من أمل وما يحتملون من ألم . وهو بعد ذلك حريص على أن يحسن العلم بما يقع حوله من الأحداث وما يلم بالناس حوله من الخطوب ، و بما يكتب وما يقال فى تلك الأحداث وهذه الخطوب . وهو إذن مضطر إلى أن يقرأ سخفاً كثيراً ، و إلى أن يسمع سخفاً كثيراً ، و إلى أن يحتمل سخفاً كثيراً ، ليس له من ذلك بد إلا أن يكون رجلا قد قسا قلبه وغلظت كبده وآثر نفسه بالسلامة والعافية ، واعتزل مواطنيه وازدرى مايصيبهم من الكوارث والنازلات .

وهو إذا أصبح مضطر إلى أن يتجرع صحفاً أربعاً أو خمساً ، و إذا أمسى مضطر إلى أن يتجرع مثل ذلك ، و إذا دار الأسبوع مضطر إلى أن يتجرع فى كل يوم صحيفة أو صحيفتين من هذه الصحف التى تقصد إلى المزاح ولكنها

تمعن بمزاحها فى الجد إمعاناً خطيراً فى كثير من الأحيان . ثم هو إذا لقى الناس مضطر إلى أن يسمع منهم ويقول لهم.وويل لعقله وقلبه مما يسمع!وويل لعقله وقلبه مما يقول ! وهو بفضل هذا كله مصروف عن العمل المنتج والقراءة الممتعة والعناية بما يغذو العقول والقلوب ، فهو يبدأ يومه بالسخف ، ويقضى يومه فى السخف ، ويختم يومه بالسخف ، وهو سعيد إذا لم ينغص عليه السخف راحة النوم ولذة الأحلام .

أليس من الطبيعى أن أفكر فى هذا كله إذا ذكرت الراحة أو سعيت إليها، وأن أبتسم لهذه الأيام التى يمكن أن أقضيها دون أن أقرأ الصحف مصبحاً وممسياً ، ودون أن أتحدث إلى الناس أو أسمع أحاديث الناس عن مجلس الأمن وهيئة الأمم المتحدة وما يحيط بهما وبنا من الظروف !

كل هذا ولم أذكر العمل الأساسى الذى أقيم حياتى عليه ؛ لأنى لا أجد فى هذا العمل جهداً ولا مشقة ولا عناء ، وإنما أجد الجهد والمشقة والعناء فى أنى مصروف عن هذا العمل على شدة ظمئى إليه وكلفى به،وعلى كثرة دعائه لى وإلحاحه على.فأنا أشبه الناس بالمسافر الذى يكاد قلبه يتقطع من الظمأ والماء بين يديه عذب صفو زلال . ولكنه لايستطيع أن يدنى منه شفتيه ..

فاذا ذكرت الراحة أو سعيت إليها فانما أذكر راضى النفس مطمئن القلب مبتهج الضمير أن هذه الراحة قد تتيح لى شيئاً من هذا التعب الحلو الذى أتحرق كلفاً به وشوقاً إليه . وقد يصدّقنى القارئ أو لا يصدقنى ولكنى أعلم أنى أنفقت أيام السفينة عاكفاً على قراءة كتاب فى حياة عثمان لا صلة بينه وبين الراحة والدعة والفراغ ، وما أعرف أنى استمتعت بشئ طول هذا العام كما استمتعت بهذه القراءة التى استطعت أن أفرغ لها دون أن تصرفنى عنها صلصلة التليفون أو الزيارة المفاجئة أو الأسئلة التى لا غناء فيها أو قراءة السخف السياسى والمشاركة فيه .

أترى إلى هذا النوع من معانى الراحة كما عرضته عليك فى هذه السذاجة التى لا تكلف فيها أنه معنى إضافى مقصور علىّ أو يوشك أن يكون مقصوراً على ؛ فغيرى من الناس يذهبون فى الراحة غير مذهبى ويبتغون بها غير ما أبتغى،وينتظرون منها غير ما أنتظر، تتقارب آراؤنا وأهواؤنا فى ذلك وتتباعد،ولكنها تختلف على كل حال باختلاف أمزجتنا وطبائعنا وآمالنا وما نسعد أو نشقى به من ضروب الحياة .

فاذا ذكرت الدعة فأمرها فى ذلك كأمر الراحة يختلف معناها باختلاف طلابها ؛ فليست الدعة عندى ترفاً ولا شيئاً يشبه الترف ، وأكاد أقطع بأنى أجد من الترف فى دارى بالقاهرة ما لا أجده بل ما لا أجد قريباً منه فى أى مكان آخر من الأرض ، وإنما الدعة التى أطمع فيها وأطمح إليها حين أمنح نفسى الإجازة من عام إلى عام هى التخفف من أثقال التكاليف التى تفرضها حياتنا اليومية المنظمة ، هى التخلص من العادات المألوفة والنظم المقررة الملحة التى تلقاك إذا خرجت من نومك مع الصبح وأقبلت على طعامك تصيب منه على نحو لا يتغير أولا يكاد يتغير ، ثم على ثيابك تلبسها على نحو لا ينبغى أن تحيد عنه قليلا ولا كثيراً ، ثم على مكتبك ثم على مكانك فى هذا المكتب ، ثم على عملك فى هذا المكان ، ثم على مايلم بك من هذه الأحداث المتشابهة التى تكاد تتنبأ بها قبل أن تنسل من سريرك ، وتكاد تحدد لها أوقاتها من النهار أو من الليل لا يفاجئك إلا مايكون من صلصلة التليفون وزيارة الزائرين ؛ وأنت مع ذلك قد قدرتها وحسبت لها حسابها ؛ لأنها أصبحت جزءاً من حياتك وقطعة من سيرتك لا سبيل إلى أن تخلص منها أو تتخفف من أثقالها. هذه الحياة المنظمة المضطربة التى تطّرد ولكنها لا تخلو مع ذلك من الأمت والاعوجاج والنبو هنا وهناك ، والتى تفرض نفسها عليك من أول العام إلى آخره ، قد قدرت نفسها ودقائقها تقديراً مفصلا دقيقاً مضنياً ، هذه الحياة هى التى تضيق بك أو تضيق بها ، أو تبادلك ضيقاً بضيق حين يتقدم العام وما تزال بك حتى تعجز عن احتمالها ، وما تزال أنت بها حتى تعجز هى عن احتمالك . فاذا بلغ العام آخره أصبحت أنت مجهداً مكدوداً لا تقدر على شئ ، وأصبحت هى فارغة سخيفة لا تصلح لشئ ، وأصبحت الدعة هى هذا الشعور الذى يُلقى فى روعك أنك فارقت هذه الحياة وأنها فارقتك ، وأن كليكما قد تخفف من صاحبه إلى حين .

كذلك أفهم الدعة ، وعلى هذا النحو أطمح فيها وأطمع إليها ، ولا علىّ بعد ذلك أن تثقل الأعباء أو تخف ، وأن يغلظ العيش أو يلين ، إنما قصارای أن أتخفف من هذا الثقل المفروض الذى لا محيد عنه فى مصر ، وأن أحتمل ثقلا غيره ، قد يكون أشد منه تعنية و إضناء ، ولكنه ثقل آخر يصور حياة أخرى ويتيح للشخصية أن تجدد نفسها على نحو ما وهذا يكفى .

فاذا أضفت إلى هذا أن من الجائز أن تتيح لك الأيام أثناء الإجازة متعة

فنية هنا أو هناك فتقرأ كتاباً كان من الممكن ألا تقرأه ، وتقرأ هذا الكتاب رغبة فى قراءته لا أداء لواجب ولاوفاء بوعد ولا تأهباً لكتابة فصل ، وتشهد هذه المسرحية أو تلك،وتسمع للموسيقى هنا أو هناك،وتلقى هذا الأديب أو ذاك من الذين تسمع عنهم وتقرأ لهم ويحول بعد الشقة بينك وبين لقائهم — أقول إذا أضفت إلى هذا أن الأيام قد تتيح لك أثناء الراحة شيئاً من هذا المتاع فقد بلغت الدعة أقصاها وانتهت إلى غايتها .

وقد يفهم غيرى من الناس دعتهم على غير هذا النحو ، بل من المحقق أن لغيرى من الناس صوراً من الدعة لعلها لاتخطر لى على بال ، ولكن هذا كله إنما يدل على ماقدمت آنفاً من أن ألفاظ الراحة والدعة والهدوء تدل على معان أكثر وأعسر وأشد تعقيداً مما نظن . والهدوء ماهو أو ما عسى أن يكون ؟ أهو هذا الهدوء المادى الذى تنعم به حين تستقر فى قرية مطمئنة بعيدة عن المدن وعما يكون فيها من الضجيج والعجيج ؟ أهو هذا الهدوء المعنوى الذى تنعم به حين تفرغ لنفسك وتخلو إليها وحين تفرغ نفسك لك وتخلو إليك بعد أن يتاح لكما الإفلات من الحياة المنظمة المطردة ؟ أهو مزاج من الهدوء المادى والمعنوى ؟ كل ذلك ممكن ، بل كل ذلك واقع؛ ولكن الشئ المحقق أنى أجد الهدوء المادى والمعنوى فى كل مكان إلا فى مصر ؛ فقد أراد الله ألا تتيح الحياة لى فى وطننا العزيز الكريم راحة ولا دعة ولا هدوءا .

والناس يذكرون الفراغ حين يذكرون الإجازة وحين لا يذكرونها أيضاً . وقد يكون من الممكن أن نجد لكلمة الفراغ معنى فى معاجم اللغة ، وأن نجد من النصوص الأدبية فى العصور المختلفة ما يبين لنا عن هذا المعنى فى وضوح وجلاء . بل قد يكون من الممكن أن نجد بين أصحاب الترف والثراء العريض مثلاً قوية صادقة تبين لنا عن معنى الفراغ . أما أنا فأعترف ، مع الحزن أو مع السرور لا أدرى ، أنى لم أجد بعد للفراغ معنى أستطيع أن أحققه . وأكبر الظن أن هذا شئ لن يتاح لى إلى آخر الدهر . إنما يتحقق معنى الفراغ حين تستطيع النفس الانسانية أن تخلص من الحس والشعور والتفكير والتقدير والحكم واللذة والألم واليأس والرجاء ، وهى إذا خلصت من هذا كله فقد اشتمل عليها الموت . أتراها بعد الموت قادرة على أن تحقق معنى الفراغ !

فى هذه المعانى كلها وفى معان أخرى كثيرة من أمثالها فكرت حين منحت نفسى إجازة أقضيها خارج القطر كما يقول الموظفون . فالإجازة عندى إذن هى الخروج من حياة إلى حياة ، والتخفف من أثقال لاحتمال أثقال أخرى،والاستعفاء من بعض الواجبات لالتزام واجبات أخرى.فنحن إذن لا نعفى أنفسنا من بعض الالتزام إلا لنفرض عليها التزاماً آخر . ونحن لا نخرج من عمل إلا لندخل فى عمل آخر . فالخير إذن فى أن نعود بالاجازة إلى معناها اللغوى القديم وهو الانتقال من مكان إلى مكان ، والعبور من أحد شاطئى النهر إلى شاطئه الآخر . وإنى لأشهد لقد بدأت إجازتى هذا العام كما بدأتها فيما مضى من الأعوام فلم أشعر إلا بأنى انتقلت من جهد إلى جهد ، ومن جد إلى جد ، ومن إلتزام إلى التزام . وإنى لأفكر فى هذه الأسفار الضخمة التى ملأ بها صاحبى حقيبة ضخمة والتى يجب أن تقرأ لعل قراءتها أن تؤدى إلى شئ يستطيع الناس أن يقرءوه ، إنى لأفكر فى هذه الكتب الضخمة وفى صلصلة التليفون التى أيقظتنى صباح اليوم فى باريس كما كانت توقظنى كل صباح فى القاهرة ، وفى المواعيد التى تطلب إلىّ وفى المواعيد التى أعطيها ، فأسأل نفسى أحقاً أنى قد منحتها إجازة تقضيها خارج القطر؟ نعم ! إن الإجازات التى تمنح للموظفين والعاملين والتى نمنحها نحن لأنفسنا بين حين وحين ، ليست إلا إجازات صغارا أو قل إنها إجازات بالاستعارة لا بالحقيقة . فأما الاجازة الكبرى ، الاجازة التى يدل لفظها على معناها دلالة لا تتعرض لشك ولا غموض ، فهى تلك التى لا يمنحها الناس للناس ولا يمنحها الناس لأنفسهم ؛ وإنما يمنحها الله للناس حين يريح منهم الحياة وحين يريحهم من الحياة .

ط حسين

باريس ، يونيو ١٩٤٧